المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة تبوك
كلية التربية والآداب
قسم الدراسات الإسلامية

جامعة تبوك
University of Tabuk

الثقافة الإسلامية

المستوى الثاني

إعداد
د. صالح بن عبدالله الغامدي
مراجعة
د. عبدالعزيز بن أحمد البداح

الطبعة الثانية
1440هـ

د. صالح بن عبدالله الغامدي
الثقافة الإسلامية
المستوى الثاني
جامعة تبوك
University of Tabuk

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة تبوك
كلية التربية والآداب
قسم الدراسات الإسلامية

الثقافة الإسلامية

المستوى الثاني

إعداد
د. صالح بن عبدالله الغامدي

مراجعة
د. عبدالعزيز بن أحمد البداح

الطبعة الثانية
١٤٤٠هـ

الثقافة الإسلامية

المستوى الثاني

د. صالح بن عبدالله الغامدي

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول

النظام الأخلاقي في الإسلام

- الوحدة الأولى: تعريف الأخلاق وبيان أهميتها في الإسلام.
- الوحدة الثانية: مصادر وخصائص الأخلاق في الإسلام.
- الوحدة الثالثة: تطور الفكر الأخلاقي وثراؤه عند المسلمين.
- الوحدة الرابعة: طرق تحصيل الأخلاق الفاضلة.

الوحدة الأولى

تعريف الأخلاق وبيان أهميتها في الإسلام

أولًا: تعريف الأخلاق

الأخلاق لغة:

الأخلاق في اللغة جمع خُلُق، والخُلْق اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خُلِق عليها.

والخلق: لفظ يطلق على الدين والطبع والسجية[1]، فيطلق على الصفات الراسخة في أعماق النفس الإنسانية.

ويطلق لفظ الخلق على حسب تقييده حسنًا أو قبيحًا. فيقال: خُلُق حسن، وخُلُق قبيح. وإذا أطلق بدون تقييد انصرف المقصود إلى الخلق الحسن.[2]

الأخلاق اصطلاحًا:

عرَّف الجرجاني الخلق بقوله: «الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة سُمِّيت الهيئة خُلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سُميت الهيئة التي هي المصدر خُلقًا سيئًا».[3]

فالخلق: صفة مستقرة في النفس ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة.

ويستفاد من هذا التعريف بأن هذه الصفة إن لم تكن صفة مستقرة في النفس فليست جديرة بأن تُسمى خلقًا؛ فمن كتم غضبه مرة لأمر ما لا يُسمى حليمًا إن لم يكن هذا خلقه دائمًا.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: خلق.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير، (١٩/ ١٧١ - ١٧٢).

(٣) الجرجاني، التعريفات، (ص١٠١).

الأخلاق الإسلامية:

عرَّف بعض الباحثين الأخلاق في الإســـلام بأنها: «مجموعة المبادىء والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه»[١] .

ثانيًا: أهمية الأخلاق في الإسلام:[٢]

تكمن أهمية الأخلاق في الإسلام في أنها تحقق السعادة الدنيا والآخرة، ويتضح هذا الأمر من خلال النقاط الآتية التي تحوي جملة من النصوص الدالة على ذلك:

١ - امتثال أمر الله سبحانه:

كثيرة هي الآيات القرآنية التي تدعو العاقل إلى امتثال أمر الله سبحانه في الأخلاق، إما إيجابًا، أو نهيًا، أو إرشادًا، ومنها:

قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾[الحجرات: ١١- ١٢].

ولهذا لما سئلت عائشـــة ﵂: ما كَانَ النبِي ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيتِهِ؟ قَالَت: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهنَةِ أَهلِهِ -تَعنِي خدمَةَ أَهلِهِ- فَإِذَا حَضَرَت الصلاةُ خَرَجَ إِلَى الصلاةِ»[٣]. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمثتل أمر الله تعالى في كل شأنه قولًا وعملًا، وكان خلقه القرآن.

(١) التربية الأخلاقية في الإسلام، (٥٧).
(٢) موسوعة الأخلاق، ص(٣٣-٣٦).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان (٦٧٦ - فتح).

٢ - أنها طاعة لرسول الله ﷺ:

عن أَبي ذر ﷺ قال: قال لي رَسُولُ اللهِ ﷺ : «اتَّقِ اللهِ حَيثُمَا كنتَ، وَأَتْبع السَّيئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(١).

٣ - أنها سبب لمحبة الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وعن أُسامة بن شَرِيك ﷺ قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ كأن على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس، فقالوا: مَن أحبُّ عباد الله إلى الله؟ قال: «أحسنُهُم خُلُقًا»(٢).

٤ - أنها سبب لمحبة رسول الله ﷺ:

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :»إن من أَحَبّكمْ إليّ، وأقربكمْ مني مَجلِسًا يومَ القيامةِ، أحاسِنَكم أخلاقًا»(٣).

٥ - أنها من أعظم أسباب دخول الجنة:

عن أبي هريرة ﷺ قال: سُئلَ رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخِلُ الناس الجنةَ؟ فقال: «تقوى الله وحُسنُ الخُلُقِ»(٤).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مرَّ رجلٌ بغُصنِ شجرةٍ على ظهرِ طريقٍ، فقال: واللهِ لأُنحِّينّ هذا عنِ المُسلمينَ، لا يُؤذيهم، فأُدخل الجنةَ»(٥).

---

(١) حسن. أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣ - ١٥٨)، والترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، (٩٧).
(٢) صحيح. أخرجه الطبراني (٤٧١)، وغيره، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٢).
(٣) صحيح. أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٠١).
(٤) حسن. أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١ - ٣٩٢ - ٤٤٢)، والترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٤٢) و»صحيح الأدب المفرد» (٢٢٢).
(٥) أخرجه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة، باب: فضل إزالة الأذى عن الطريق.

والنصوصُ في حُسن الخُلق كثيرة، منها: أنَّها دليل كمال الدين[١]، وأنَّها أثقلُ شيء في الميـــزان[٢]، وأنها عبادةٌ يبلغ بها العبد درجات الصائـــم القائم[٣]، وأن صاحب الخلق من خيار الناس[٤]، وأنها من خير أعمال الإنسان[٥]، وأنها سببُ تأييد الله ونصره.

(١) صحيح. أخرجه أبـــو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وابن حبان (٤٧٩ الإحســـان)، وصححه الألباني في «الصحيحة» بطرقه (٢٨٤).

(٢) صحيح. أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١)، وأبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، وابن حبان (٤٨١ الإحسان، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٨٧٦).

(٣) صحيح. أخرجه أحمد (٦/ ٦٤، ٩٠، ١٣٣، ١٨٧)، وأبو داود (٤٧٩٨)، وابن حبان (٤٨٠ الإحسان)، والحاكم (١/ ٦٠ واللفظ له)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٥٩، ٣٧٥٩، ٦٠٢٩، ٦٠٣٥)، ومسلم (٢٣٢١).

(٥) أخرجه البخاري (٣ الفتح)، ومسلم (١٦٠) كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

الوحدة الثانية

مصادر وخصائص الأخلاق في الإسلام

أولًا: مصادر الأخلاق في الإسلام:[1]

الأخلاق في الإسلام تُستمد مما يلي:

١- القرآن الكريم:

يُعتبر القرآن الكريم المصدر الأول للأخلاق، والآيات في ذلك كثيرة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ونظائر هذه الآيات كثيرة في كتاب الله تعالى، وكلها من مصادرالأخلاق.

والرسول ﷺ هو أول من تخلَّق بأخلاق القرآن الكريم وألزم نفسه بآداب القرآن، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كانَ خُلُقُ الرسول ﷺ القرآن»[2].

قال الحافظ ابن كثير: «ومعنى هذا أنَّهُ قد أَلزمَ نفسَهُ ألا يفعلَ إلا ما أَمَرَهُ بِهِ القُرآنُ، ولا يترُكَ إلا ما نهاهُ عنهُ القرآنُ، فصارَ امتثالُ أمرِ ربِهِ خُلُقًا له وسجيَّةً، صلوات اللهِ وسلامهُ عليه إلى يومِ الدينِ»[3].

(١) انظر: موسوعة الأخلاق، (٢٩-٣١).

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٧٤٦).

(٣) «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» (٢٥١).

٢- السنة النبوية:

السنة النبوية هي: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته.

وهي المصدر الثاني للأخلاق، قال جل جلاله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال رسول الله ﷺ: «إنما بعثتُ لأتمم صالح الأخلاق»[(١)] .

قال إبراهيم الحربي: ينبغي للرجل إذا سمع شيئًا من آداب النبي ﷺ أن يتمسك به[(٢)].

ولذا حرص الصحابة رضي الله عنهم واهتموا وتابعوهم اهتمامًا كبيرًا وتخلقوا بالأخلاق الحسنة مستندين في ذلك إلى ما جاء في كتاب الله -سبحانه وتعالى- وسنة نبيه ﷺ، فهم قدوتنا وسلفنا الصالح في الأخلاق.

ثانيًا: خصائص الأخلاق في الإسلام:[(٣)]

١- ربانية المصدر:

مع أن أصل الأخلاق فطري إلا أن الإسلام جاء ليؤكدها ويحث عليها وينمِّيها، كما أخبر بذلك النبي ﷺ حيث قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[(٤)]. ولهذ فإن أبرز خصائص الأخلاق في الإسلام أنها تستمد مشروعيتها ومصدريتها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢- الارتباط الوثيق بين العقيدة والعبادة والأخلاق:

لا شك أن كل من يقف على الآيات والأحاديث المتقدمة يدرك يقينًا أن الجانب الأخلاقي له مكانته الكبرى في ميزان الله؛ وأنه أصيل وجوهري في بنيان هذا الدين، وأنه لا يمكن

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٢٧٣)، والحاكم في المستدرك (٢/٦١٣)، وقال صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١/٧٥).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٤٢).

(٣) انظر: الثقافة الإسلامية (١٠١)، جامعة أم القرى، ١٤٣٥هـ -بتصرف.

(٤) رواه البيهقي، (١٠/١٩٢).

تصور انفصام الصلة بين الأخلاق وبين ســـائر جوانب الدين الأخرى سواء أكانت عقيدة أو شريعة أو دعوة إلى دين الله تعالى.

(ا) ففي جانب العقائد نجد التلازم التام بينها وبين الأخلاق حتى صار غيابها أو ضعفها مؤذنًا بضعف الإيمان أو نقصانه؛ كما قال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[1]، وقال: «من غشنا فليس منا»[2]، وبيَّن ﷺ الاقتران الشديد بين الإيمان والحياء؛ فقال: «الحياء والإيمان قرنا جميعًا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»[3]، وأخبر ﷺ أن سيئ الخلق مع جيرانه لا يدخل الجنة؛ فقال: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»[4].

ويظهر لنا مدى هذه العلاقة الوثيقة بين العقيدة والأخلاق إذا علمنا أن الإيمان بالله ربًّا وخالقًا وإلهًا، ومعرفته بأسمائه الحسنى كالعليم والخبير والرقيب والحسيب والحفيظ والمحيط، يوجب على العبد مراقبة الله وخشيته والحياء منه، والتحلي بمحاسن الأخلاق واجتناب رذائلها.

(ب) وفي جانب العبادات والمعاملات نجد أنه ما من عبادة يتقرب بها إلى الله إلا وزينت واقترنت بأخلاق فاضلة، ونهي فيها عن أخلاق مرذولة، وكذلك الحال في المعاملات والعادات.

ففـــي الصلاة أخبر اللـــه تعالـــى أنهـــا: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالســـكينة»[5]، وفي الزكاة قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبـــة: ١٠٣]، وقـــال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وفي الصوم قـــال تعالـــى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقـــرة: ١٨٣] وقال النبي ﷺ: «الصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم

(١) رواه أحمد (١١٩٧٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣١٣٥).
(٢) رواه مسلم (١٠١).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٥٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٨٣).
(٤) رواه مسلم (٤٦).
(٥) رواه البخاري (٦٣٥) ومسلم (٦٠٣).

فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم»[1]، وقال ﷺ: «من لم يدع قول الزور، والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[2]

وفي الحج قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾[البقرة: ١٩٧].

(جـ) وفي العلاقات الزوجية قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النساء: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾[البقرة: ٢٣٧].

(د) وفي البيوع والمعاملات المالية قال ﷺ: «من غشنا فليس منا»[3]، وقال أيضًا: « رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»[4].

(هـ) وفي جانب الدعوة إلى الله تعالى يلحظ المطالع لسيرة النبي ﷺ أن حسن خلقه وكريم خصاله كان له تأثير كبير في نفوس المدعوين كما كان سببًا في إسلام عدد كبير من الصحابة الأوائل الذين عرفوا النبي ﷺ عن قرب قبل البعثة وخبروا أخلاقه وأيقنوا استحالة أن يدع الكذب على الخلق ثم يكذب على الخالق سبحانه وتعالى.

وفي موقف خديجة رضي الله عنها حينما نزل جبريل على النبي ﷺ في غار حراء أول مرة أنموذجًا واضحًا في هذا الصدد، فقد رجع ﷺ إليها: «يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[5].

ولا شك أنه قد رسخ في يقين خديجة رضي الله عنها استحالة أن يخزي الله رجلًا كالنبي ﷺ، له مثل هذه الخصال والشمائل واستدلت على: «ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدًا بأمر استقرائي، وصفته بأصول مكارم الأخلاق، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب

(١) رواه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).
(٢) رواه البخاري (١٩٠٣).
(٣) رواه مسلم (١٠١).
(٤) رواه البخاري (٢٠٧٦).
(٥) الحديث رواه البخاري (٤) ومسلم (١٦٠).

وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به»[1].

وكلما كان للداعية رصيد طيب من حسن الخلق عند الناس كان ذلك أدعى لقبول دعوته وتصديق الناس له، ومما يشهد لذلك ما حدث في أول الإسلام حينما انتقل ﷺ من مرحلة الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية ونزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢٦] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي لبطون قريش، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[2].

وخلاصة ما سبق كله هو أن من نظر نظرة متأملة ومستقصية في القرآن والسنة فسوف يجد أن الأخلاق تسري في كل جوانب هذا الدين عقيدة وشريعة ودعوة ونظام حياة، وأنه لا يتصور وجود مؤمن صحيح العقيدة ومؤد للعبادات على وجهها التام والكامل ثم هو مع ذلك سيئ الأخلاق، وخال من الاتصاف بجميل الشيم وكريم الخصال.

٣ – الشمول:

الأخلاق تدخل في كل مجالات النفس الإنسانية الظاهرة منها والباطنة فتشمل جانب الاعتقاد، والقلب، والنفس، والسلوك وتشمل شؤون الحياة كلها، فهي ذات صلة بالعقيدة والعبادة والمعاملات ومختلف العلاقات.

والأخلاق في الإسلام تشمل علاقة الإنسان بخالقه، وبنفسه وبني جنسه، بل وتمتد لتشمل علاقة الإنسان ببقية المخلوقات الأخرى.

ففي مجال علاقة الإنسان بخالقه يرد خلق الإخلاص والصدق بعيدًا عن الرياء والنفاق، وفي العبادة أشرنا إلى أمثلة من ذلك يأتي في مقدمتها إخلاص العبادة لله تعالى، ومن فضائل أخلاق القلب حب الحق وحب الخير، ومن فضائل أخلاق النفس الصبر والعفة

(١) ابن حجر: فتح الباري، (١ / ٢٤).
(٢) رواه البخاري (٤٧٧٠) ومسلم (٢٠٨).

والبعد عن الحسد، وفي مجال المعاملات والسلوك يأتي خلق الحياء والصدق والإحسان إلى الآخرين وتشمل السلوك الفردي والاجتماعي، وفي كل مجال من مجالات الحياة: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وهذا بخلاف الأخلاق الوضعية التي تسوغ للأقوياء من الحكام والحكومات والمسؤولين وغيرهم ظلم الأفراد والشعوب واستغلال ثروات الشعوب ونهبها، والأخلاق الوضعية تفصل بين الأخلاق والاقتصاد فنشـــأت الأنظمة الإقطاعية والرأسمالية والأنظمة الربوية وغيرها من مفاســـد ومهالك لا تلتزم بأصول أخلاقية سوية، وإنما تقوم على الأنانية ويحكمها منطق المنفعة المحضة وفيها يأكل القوي الضعيف، وتُسن القوانين لتـــخدم الأقوياء على حساب الضعفاء، وتفتقر إلى الشـــمول الذي تتميز به الأخلاق في الإسلام.

ومن مظاهر شمول الأخلاق الإسلامية شمولها لكافة مناشط الإنسان وتوجهاته تستوعب حياته كلها من جميع جوانبها، ثم هي في هذا لا تقف عند حد الحياة الدنيا[1].

٤ – تحقيق العبودية لله تعالى:

من خصائص الأخلاق في الإســـلام ابتغاء وجه الله تعالى والفوز برضوانه، وهي سبب موصل إلى أعالي الجنان يوم القيامة، وليســـت أخلاقًا نفعية كما هو الحال في الحضارات الأخرى، لا يقصد بها إلا تحقيق مصالح دنيوية، فغاية الأخلاق في الإسلام تحقيق العبودية لله تعالى واكتســـاب مرضاة الله تعالى، وتحقيق السعادة في الدارين والنجاة من الشقاء والتعاسة والهلاك في الدنيا والآخرة.

٥ – الوسطية والاعتدال:

الأخلاق الإســـلامية أساســـها التوازن والاعتدال بين حظوظ الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصـــص: ٧٧]. وقـــال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٣١].

فجاء الإسلام وسطًا بين اليهود الذين أســـرفوا في عبادة المال والسعي لتحصيله بأي وسيلة مشروعة وغير مشروعة، وبين رهبان النصارى الذين سلكوا رهبانية ابتدعوها وعزفوا عزوفًا تامًا عن الحياة الدنيا ـــ كما زعموا ـــ مع أن أصل حالهم خلاف ذلك.

(١) نضرة النعيم، (١/ ٨١).

إن وسطية الأخلاق الإســـلامية لم تلغ الطبيعة البشرية بل عملت وتعمل على توجيهها باعتبارها مفاهيم ضابطة، تعمل على توجيه هذه الطبيعة، فهي لا تضاد الفطرة ولا تلغيها ولا تكبتها ولا تقف في سبيلها.[١]

٦- الثبات:

الأخلاق والمعايير الأخلاقية في الإسلام لا تتغير ولا تتبدل مع الزمان أو المكان، كالنسبية لأنها تعتمد على منهج ثابت لا يتغيـــر بتغير الزمان والمكان، فالفضيلة ثابتة لها معالمها وخصائصها، والرذيلة كذلك معلومة في الإســـلام لها معالمها وحدودها ولا يمكن أن تكون الفضيلة رذيلة أو العكس مع تغير الزمان أو المكان كالحال في الأخلاق المادية التي يكون فيها الحسن اليوم قبيحًا غدًا، وما يكون خلقًا حسنًا في مجتمع لا يلزم أن يكون ذلك خلقًا حسنًا في مجتمع آخر، فتتغير وتتبدل مع تبدل الزمان والمكان، وهذا ما لا نجده في صفات الأخلاق في الإســـلام، فالصدق صفة مدح منذ أن امتـــدح الله الصادقين في كتابه إلى يوم القيامة، وغيرها من الصفات والأخلاق الفاضلة، وكذلك مساوئ الأخلاق والرذائل التي حذر منها الإسلام لا تصبح يومًا من الأيام خلقًا حسنًا.

جوهر الفرق بين الأخلاق في الإسلام والأخلاق في الغرب

الأخلاق في الإسلام مسألة تعبدية لله، حيث تقوم في أساسها على نصوص الوحي، وأما في الغرب فالأخلاق مسألة نسبية، أي أنها خاضعة للتغير وفق مصلحة الفرد أو الجماعة، وما ذاك إلا لأنها تقوم على ما أنتجه العقل من نظريات وتجارب لا على نصوصٍ ثابتة كما هو الحال في الإســـلام. ولهذا يعتقد بعض الفلاســـفة في الغرب بأنه لا صلة بين الأخلاق والدين، ويزعمون بأن الأخلاق منبعها مصالح الإنســـان وحاجاته، وهو ما يسمى في الفكر الغربي بالأخلاق النفعية أو «البراجماتية»[٢].

وقد ادعى رائد المذهب النفعي في الغرب «توماس هوبز» بأن الأخلاق مســـألة نسبية اعتبارية تـــختلف من مكان إلى آخر ومن زمن إلى آخر، ومن مجتمع إلى مجتمع آخر فما يكون خلقًا حسنًا في مجتمع لا يلزم أن يكون حسنًا في مجتمع آخر، وما يكون قبيحًا في زمن قد يكون خلقًا حسنًا في زمن آخر.

(١) المرجع السابق، (١/٨٢).

(٢) بودون، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، (ص٥٨٠).

وادعى أيضًا بعض رواد هذا المذهب أن الطبيعة الإنسانية طبيعة أنانية تعمل لتحقيق المصالح الذاتية،[1] فالإنسان -بزعمهم- إن أحسن إلى الآخرين وحسن خلقه فإنما هو اضطرار لتحقيق مكاسب خاصة! لأن السلوك الإنساني مفطور على مبدأ المنفعة!

والإنسان -بزعمهم أيضًا- خُلق عبدًا لأمرين هما: اللذة والألم، وهما اللذان يتحكمان في كل فعل أو قول أو سلوك يصدر عن الإنسان،[2] فالخير - على حد زعمهم- ما يجلب اللذة وما يحقق المنفعة الشخصية، والشر ما يجلب الألم ويفوت منفعة شخصية.

إن هذه الأصول المادية القائلة بنسبية الأخلاق منافية للحكمة من خلق الخلق، ومناقضة لما فطر الناس عليه من حب الخير للآخرين، وما حثت عليه نصوص الكتاب والسنة من مكارم الأخلاق والإيثار وحب الخير للآخرين، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3]، وقال ﷺ: «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم»[4].

(١) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، (ص ٣٨).
(٢) قضايا علم الأخلاق، (ص ١١).
(٣) البخاري، حديث رقم (١٣).
(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢/٦٠٨، حديث رقم (٩٠٦).

الوحدة الثالثة

تطور الفكر الأخلاقي وثراؤه عند المسلمين[1]

إن أهم ما يميز الفكر الإســـلامي ويؤكد أصالته هو ذلك الكم الضخم من المؤلفات التي أسهم بها العلماء المسلمون في المجال الأخلاقي، وقد كانت هذه الجهود المباركة - شأنها شأن أي جهد علمي خلّاق- بدأت متدرجة مختلطة بغيرها ثم تمازيت واستقلت.

لقد أرســـى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة المفاهيم والقيم اللازمة لإقامة حياة سعيدة ، مع الجزاء الأوفى في الآخرة، وقد تفاعل الفكر الإنساني مع هذه المبادىء والقيم، فقد أبرز القرآن الكريم للناس نظرة جديدة إلى الكون والحياة والمجتمع، وكانت هذه الجِدَةُ متمثلةً في الوســـطية والحيوية والحركة والتكامل وتطور الفكر الإسلامي كوحدة متكاملة ، ومن ثم ظهـــرت العلوم والمعارف والعقائد، والأحكام، واللغة، والأدب، والنحو والصرف، والاشتقاق ، والمعاني ، والبديع، والبيان، والحديث والتفسير، والأصول، والعلوم التجريبية.

لقد ظهرت الاهتمامات المبكرة بالفكر الأخلاقي منذ عهد الصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين- رحمهم اللّه تعالى- على عدة وصايا ونصائح مأخوذة من الآثار المنقولة عنهم في تفسيرهم لآيات القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ.

وفي القرن الثاني الهجري بدأت الأعمال العلمية المنظمة في مجال العلوم الفقهية التي تضمنت إشـــارات واضحة إلى ميادين الأخلاق ، وقد تمثلـــت هذه الجهود في أعمال الأئمة المجتهدين أمثال الإمام أبي حنيفة النعمان (ت ١٥٠ هـــ)، والإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩)، والإمام الشـــافعي (ت ٢٠٤ هـــ)، والإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١)، وقد كان هؤلاء بذواتهم قدوة، وكان ما توصلوا إليه من استنباطات في الأحكام والتوجيهات التي ينظم حياة الناس في كافة مســـتويات الحياة من فردية وأسرية واجتماعية، وقد كانت اجتهادات هؤلاء الأئمة معالم طريق في المجتمع الإسلامي في إطار معياري أخلاقي سديد.

(١) انظر: صالح بن حميد، القيم الأخلاقية بين الإسلام والغرب-بتصرف، ١١-١٧

وفي القرن الثالث الهجري ظهرت بوادر الأعمال العلمية التي خصصها مؤلفوها للحديث عن موضوعات أخلاقية، أمثال «الجاحظ» ، ومن مؤلفاته البارزة «تهذيب الأخلاق» .. ورسالة في كتمان السر وحفظ اللسان، ورسالة في النبل والتنبل وذم الكبر، ورسالة في المودة والخلطة وأخرى في الجد والهزل، هذا بالإضافة إلى ما تضمنته كتاباته الأخرى مثل «البيان والتبيين» و«البخلاء» و«الحيوان» إذ تضمنت العديد من الوصايا الخلقية التي برزت في شكل أدبي جذاب. وفي نفس الفترة (تقريبًا) ظهرت الموسوعات الأدبية والتاريخية التي ضمنها مؤلفوها أبوابًا في الأخلاق، من ذلك ما كتبه ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) عن الطبائع والأخلاق في موسوعة «عيون الأخبار»، وقد تتابع تأليف هذه الموسوعات في القرون التالية، وفيما يلي عرضٌ لأبرزها.

أبرز مؤلفات علماء المسلمين في الأخلاق:

١- ابن المبارك (ت ١٨١ هـ)، له كتاب «الزهد»، وهو كتاب مليء بالتوجيهات الخلقية، وأدلتها من القرآن والسنة وأقوال التابعين خاصة الزهاد منهم.

٢- وكيع بن الجراح (ت ١٩٧ هـ)، له أيضًا كتاب «الزهد» وقد رتبه على الأبواب، وضمنه أحاديث الزهد والرقائق والأدب والأخلاق.

٣- الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، له كتابا: «الزهد» و«الورع»، وقد تناولت هذه المصنفات الحث على مكارم الأخلاق والزهد في الدنيا والتطلع إلى ثواب الله في الآخرة، ومادتها تتكون من القرآن الكريم والحديث الشريف وآثار السلف الصالح.

٤- الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، وهو صاحب الجامع الصحيح (صحيح البخاري)، وله في الأخلاق كتاب «الأدب المفرد»، جمع فيه الأحاديث المتعلقة بالآداب والأخلاق، ويعد هذا الكتاب من أسبق ما ألفه علماء الحديث في المجال التربوي والأخلاق الإسلامية.

٥- ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ)، ويعد من أبرز المؤلفين في الأخلاق والتربية الإسلامية، وقد تبحر أيضًا في علوم الحديث، ومن أهم مصنفاته في التربية والأخلاق: «الإخلاص»، «الأمر بالمعروف»، «الحذر والشفقة»، «ذكر الموت»، «ذم الغضب»، «الرضا عن الله والصبر على قضائه»، «الغيبة والنميمة»، «القناعة»، «الصمت»، و«آداب اللسان»، وغيرها مما يتضمن محمود الأخلاق ومذمومها، وتمتاز هذه المصنفات بالوحدة الموضوعية،

وجودة الترتيب، ونسبة الآثار والأقوال لأصحابها. مع الاعتناء الكامل بذكر الشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف.

٦- الإمام النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، ويعد كتابه «عمل اليوم والليلة» من أهم المساهمات التي قدمها علماء الحديث في الميدان الأخلاقي، إذ تضمن صفة الذكر في الصباح والمساء، ثم تناول جزئيات الحياة اليومية من صلاة وصيام وجهاد والوضوء ودخول المسجد، والبيع والشراء، وعيادة المرضى وغير ذلك مما يتناول تفصيل الحياة اليومية، الفردية والأسرية والاجتماعية، والكتاب في الواقع هو معجم للمثل والقيم الإسلامية.

٧- أبو بكر الخرائطي (ت ٣٢٧ هـ) وأبرز مؤلفاته كتابان: أحدهما «مكارم الأخلاق ومعاليها» والثاني «مساوىء الأخلاق ومذمومها وطرائق مكروهها» وكما يتضح من عنوان الكتابين أنهما يعنيان بسلوك المسلم إن إيجابًا باتباع الأخلاق الحميدة المأمور بها، وإن سلبًا باجتناب الأخلاق المذمومة المنهي عنها.

٨- أبو بكر الآجري (ت ٣٦٠ هـ)، وله في المجال الأخلاقي مصنفات عديدة منها: «أخلاق حملة القرآن»، و«أخلاق العلماء»، و«أدب النفس»، و«كتاب أهل البر والتقوى»، و«كتاب التوبة»، و«كتاب التهجد»، وغيرها كثير، وقد أجمل في هذه الكتب الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها العلماء وحملة القرآن والمسلمون بوجه عام.

٩- ابن السني (ت ٣٦٤ هـ) وله كتاب «عمل اليوم والليلة» ويتضمن (مثل كتاب النسائي) قواعد السلوك الخلقي للمسلم في يومه وليلته، ومن ثم في حياته كلها.

١٠- ابن حزم الأندلسي (ت ٤٢١ هـ) وكتابه «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» يقدم نموذجًا من التجربة العملية التي تؤكد إمكانية مقاومة الرذائل.

١١- أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) وله كتابات مهمة في علم الأخلاق مثل: «أدب الدنيا والدين»، و«نصيحة الملوك»، و«تسهيل النظر وتعجيل الظفر». ويحفل كتابه «أدب الدنيا والدين» بالمباحث الأخلاقية كالحياء والصدق، وآداب الكلام والصبر والشورى، وكتمان السر، والمروءة، كما تضمنت مباحثه أيضًا الأخلاق المذمومة من نحو الكذب والغيبة والنميمة، أما الكتب الأخرى فقد تضمنت العلاقة بين الأخلاق وسياسة الناس، وهذا مبحث فريد مميز في فكر الماوردي.

١٢- البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) وله «شعب الإيمان»، وقد تحرى فيه ذكر الأحاديث بأسانيدها وأشار إلى درجة صحتها، وبلغت مروياته من الأحاديث والآثار ١١٢٦٩ حديثًا وأثرًا، ويعد كتابه من الكتب الجامعة في مجال الأخلاق.

١٣- الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ)، وله مؤلفات عديدة في موضوع الأخلاق منها: «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين»، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة»، وقد تضمن كتابه «محاضرات الأدباء» مباحث أخلاقية عديدة، وقد أولى الجانب النظري للأخلاق اهتمامًا كبيرًا، وكان فكرهُ إسلاميًّا خالصًا.

١٤- أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ويعد من أشهر من تحدث عن الأخلاق في التراث العربي نظرًا لشهرة كتابه الموسوعي «إحياء علوم الدين»، وله في المجال الأخلاقي أيضًا «ميزان العمل»، ويجمع فكره الأخلاقي أطرافًا وخيوط مذاهب أخلاقية عديدة، وقد اختلف الناس في تقويم آرائه اختلافًا كبيرًا.

١٥- ابن الجوزي (ت ٥٩٦ هـ)، ومن مؤلفاته في هذا المجال «صفة الصفوة»، وقد تضمن وصايا أخلاقية عديدة من خلال التراجم التي قدمها. وله أيضًا «صيد الخاطر».

١٦- الحافظ المنذري (ت ٦٥٦ هـ)، ويعد كتابه «الترغيب والترهيب» من أهم الكتب التي صنفت في الشريعة وفقًا للمجالات الأخلاقية، إن حسنة بالترغيب فيها، وإن سيئة بالترهيب منها.

١٧- العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ)، وله في الأخلاق كتابه القيم «شجرة المعارف والأصول» الذي يحتوي على عشرين بابًا، يستهدف منها إصلاح القلوب لأنها منبع كل إحساس.

١٨- الإمام النووي (ت ٦٧٦ هـ)، وكتابه «رياض الصالحين»، تضمن أبوابًا في الأخلاق من خلال الآيات والأحاديث التي استشهد بها.

١٩- ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، وتتمثل أهم جهوده في ميدان التربية والأخلاق في «مجموع الفتاوى»، وقد استخرج بعض الباحثين ما كتبه شيخ الإسلام عن الأخلاق،[١] كما استطاع

(١) انظر: كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية (مكارم الأخلاق)، إعداد عبدالله بدران، وحمد عمر الحاجي، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

باحث آخر أن يستخلص أسس النظرية الأخلاقية عند ابن تيمية، فتحدث عن وهبية الأخلاق وكسبيتها، ومصدر الإلزام الخلقي، وغيرها من مباحث توضح الفكر الأخلاقي عنده.

٢٠- الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، ويعد كتابه عن «الكبائر» متعلقا بالجانب السلبي للأخلاق، حيث أوضح الأخلاق المذمومة التي تعد من كبائر الذنوب وذكر من الآيات والأحاديث ما يدل على غلظ العقوبة فيها.

٢١- ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) وله إسهامات عديدة في مجال الأخلاق نذكر منها: «الفوائد»، و«مدارج السالكين»، و«عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، و«إعلام الموقعين»، و«الداء والدواء»، و«إغاثة اللهفان»، وقد تناول في هذه الكتب أسس علم الأخلاق.

٢٢- ابن مفلح (ت ٧٦٣ هـ)، وقد طرح فكره الخلقي من خلال كتابه المشهور «الآداب الشرعية والمنح المرعية»، وفيه الكثير عن الفضائل الخلقية التي يجب أن يتحلى بها المسلم.

٢٣- السفاريني الحنبلي (ت ١١٨٨ هـ)، وله في المجال الأخلاقي كتاب «غذاء الألباب»، وهو شرح لمنظومة الآداب، وقد تضمن الحديث عن حسن الخلق إجمالًا، ومكارم الأخلاق تفصيلًا، مثل: البر وحسن الظن، ونحو ذلك، وتناول أيضًا مذموم الأخلاق مثل الغيبة وآفات اللسان، والفحش ونحو ذلك، وقد تناول الحكم الفقهي لمعظم ما تناوله من الفضائل أو الرذائل.

المؤلفات في العصر الحاضر:

وفي العصر الحاضر تتابعت جهود العلماء في الكشف عن الخصائص الأخلاقية والقيم التربوية في الإسلام، ومن أمثلة هذه الجهود العلمية:

١. «دستور الأخلاق في القرآن الكريم»، لمحمد عبد اللّه دراز.
٢. «خلق المؤمن» لأبي بكر الجزائري.
٣. «منهج القرآن في تربية المجتمع» لعبد الفتاح عاشور.
٤. «فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم» لعلي خليل أبو العينين.
٥. «التربية الخلقية في الإسلام» لسلوى رمضان.

الوحدة الرابعة

طرق تحصيل الأخلاق الفاضلة

تحصيل الأخلاق الفاضلة في الإسلام يكون بطريقين:[1]

الطريق الأول:

طريقٌ موهوب، وهو عطاء من الله سبحانه، وهذا الخُلق الحسن ليس لنا سبب إليه إلا الهبة من الله -سبحانه- كما زكى الله سبحانه عيسى -عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، وهذا يسمى الطبع الذي جُبِلَ الإنسان على التحلي به.

الطريق الثاني:

طريقٌ مكسوب، وهو من فعل الإنسان حسنه وقبيحه، وهذا يعرف أيضًا بالتطبع.

والدليل على أن الأخلاق تنقسم إلى هذين القسمين حديث أشجّ عبد القيس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إن فِيكَ لخلقينِ يُحِبُّهُمَا اللهُ» قُلتُ: وما هما يا رسول الله؟ قال: «الحِلمُ وَالحَيَاءُ»، قلت: قَديمًا كان أو حَديثًا؟ قال: «قديمًا». قُلتُ: الحَمدُ للهِ الذي جَبَلَنِي على خُلقينِ أحبهما الله»[2].

قال العلامة ابن عثيمين -رحمه الله: «فهذا دليل على أن الأخلاق الحميدة الفاضلة تكون طبعًا وتكون تطبّعًا، ولكن الطبع -بلا شك- أحسنُ من التطَبُّع؛ لأن الخلق الحسن إذا كان طبيعيًّا صار سجيَّة للإنسان وطبيعة له، لا يحتاج في ممارسته إلى تكلُّف، ولا يحتاج في استدعائه إلى عناء ومشقة، ولكن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومن حُرم -أي حُرم الخلق عن سبيل الطبع- فإنه يمكنه أن يناله عن سبيل التطبع، وذلك بالمرونة والممارسة»[3].

(١) انظر: موسوعة الأخلاق، (٤٧-٥٠) -بتصرف.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد، والبخاري في "الأدب المفرد" (٥٨٤)، وأبو يعلى (١٢/ ٢٤٢).

(٣) انظر: مكارم الأخلاق، (٢٧٢).

فالأخلاق منها ما هو موهوب، ومنها ما هو مكتســـب، والموهوب من الله سبحانه، وأما المكتسب فكما في قول النبي ﷺ: «العِلمُ بِالتَّعَلمِ، وَالحِلمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَن يَتَحَرَّ الخَيرَ يُعطَهُ، وَمَن يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ»(١).

وأيضًا كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّديدُ الذِي يَملِكُ نَفسَهُ عِندَ الغَضَبِ»(٢).

وأيضًا عن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا قال للنبى ﷺ: أوصِني. قال:»لا تَغضَب». فردد مرارًا قال: «لا تَغضَب»(٣).

وهذا الغضب هو المذموم، فقول النبي ﷺ: «لا تغضب» أي عوِّد نفســـك الصبر، وكظم الغيظ، فإذا جاء ما يثيـــر حفيظتك ويثير أعصابك، فلا بد من أن تهدأ وتتصبر، وكما قال: «الحلم بالتحلم».

والشـــاهد من كل هذا أن الطريق الثاني لتحصيل الأخلاق هو المكتسب بفعلنا وأخلاقنا الكريمة والمعروف (بالتطبع) الكسبي المعروف.

قال الشاعر منقر بن فروة:

ومَا المَرءُ إلا حيثُ يجعلُ نَفسَهُ ... ففي صَالحِ الأخلاقِ نَفسَكَ فَاجعَلِ

وقال أبو تمام:

فلم أَجِدِ الأَخلاقَ إلا تَخَلُّقًا ... ولم أَجِدِ الإفضَالَ إلا تَفَضُّلا

وقال الماوردي -رحمه اللهُ: «اتباعُ الدِّين، والرجوع إلى الله -عز وجل- في نَدْبه وآدابه، فيقهَر نفسَه على مذموم خُلُقها، وينقلها عن لئيم طبعها، وإن كان نقلُ الطباع عَسِرًا، لكنْ بالرياضة والتدرج يســـهل منها ما استصعَب ويحَبّب منها ما أَتعب، وإن تقدم قولُ القائل:

(١) أخرجـــه ابن أبي الدنيـــا في "الحلم" (٢)، والخطيب في "التاريخ" (٩/ ١٢٧)، وحســـنه الألباني في "الصحيحة" (٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٨)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٦).

مَن رَبُّه خَلَقَه كيف يُخَلّي خُلقه! غير أنه إذا عانى تهذيبَ نفسه، تظاهر بالتخلُّق دون الخلُق، ثم بالعادة يصير كالخلُق»[1].

والخلاصة أن الأخلاق ما هو جبلي فطري، ومنها ما هو مكتسب ينبغي للعبد أن يجتهد في تربية نفســـه، وحملها على الأخلاق الفاضلة، ولهذا جاءت الخطب والمواعظ والوصايا لتزكية النفوس والسمو بأخلاقها.

(١) "أدب الدنيا والدين" (٤٢٨).